



كيف يمكن قراءة التدخل الروسي في سوريا من خلفية عسكرية؟ وما النتائج السياسية لهذا التدخل؟ خاصة إزاء حدوث متغير رئيسي في بيئة الأزمة السورية، تمثل في الدخول العسكري الروسي المباشر لدعم الجيش السوري والقوى المؤلفة معه.

لقد أنتج المتغير الروسي جملة متغيرات فرعية (تابعة)، على المستويات الأمنية والسياسية، محلياً وخارجياً، قادت مجتمعة إلى إعادة تعريف البيئة الجيوسياسية للأزمة السورية بالمعنى العلمي النظامي للمصطلح.

إن إعادة تعريف البيئة الجيوسياسية مفهوم تحليلي نسيبي، يرتكز على جمع العناصر المتغيرة، أو تلك التي في طور التغيير أو التحول، وقياسها كمياً، ثم إعادة قسمتها على إجمالي "العناصر" المكونة للبيئة، للتأكد من الغلبة النسبية الوازنة للبعد المتغير.

وهذه بالطبع ليست عملية سهلة، بل هي معقدة بالضرورة، وتستلزم جهداً علمياً واسعاً، ويُعدُّا أكيداً عن أية ميول معيارية، كما أن الزمن عامل حاسم فيها. وكيف يمكن لمتغير ما أن يحدث إعادة تعريف للبيئة الجيوسياسية في هذه السرعة القياسية؟

هذا يعود جزئياً إلى طبيعة المتغير ذاته، خاصة لجهة عنصر المفاجأة فيه. كما يرتبط ذلك، بالضرورة، بمدى الثبات أو السيولة في العناصر المختلفة المشكلة للبيئة الجيوسياسية، أمنياً وسياسياً، وعلى المستويات كافة.

من الواضح أن التدخل العسكري الروسي، بالحجم والكيفية التي حدث بها، قد امتلك عنصر المفاجأة، ومن الواضح أيضاً

أن بيئـة الأزمـة السـورية عـلـى درـجة كـبـيرـة مـن السـيـولـة (حـالـة التـبـدـل والتـغـيـر فـي معـطـيـاتـها) أـمـنيـا وـسـيـاسـيـا، وـهـي لـم تـخـذ بـعـد صـورـة الثـبات وـالتـشـكـل النـهـائـي.

وـعـلـيهـ، لا غـرـابة فـي القـول إـنـا بـصـدـد بـيـئـة جـيـوـسـيـاسـيـة مـتـغـيـرـة، أو بـالـتـعبـير المـجـمـل (أـو الـكـلـي): بـيـئـة إـسـتـراتـيـجـيـة مـتـحـولـة. وـالـآن، دـعـونـا نـرـى عـوـاقـب "المـتـغـيـر الرـئـيـسي" فـي أـبعـادـه المـلـحـيـة.

قاد التـدـخـل العـسـكـري الروـسـي إـلـى أـمـرـيـن أـسـاسـيـن: الأول، إعادة تـوزـيع القـوـة عـلـى الـأـرـض. وـالـثـانـي، تـأـكـيد مـبـدـأ السـيـطـرـة الجـوـيـة. كـانـ الأول نـتـاجـا للـثـانـي، وـفـيـ استـعادـةـ الجـيـش السـوـرـيـ منـاطـقـ وـبـلـادـاتـ كـانـتـ تـحـتـ سـيـطـرـةـ المـعـارـضـةـ المـسـلـحةـ، وـبعـضـهاـ كـانـ خـاصـعاـ لـهـذـهـ المـعـارـضـةـ مـنـذـ أـكـثـرـ مـنـ عـامـيـنـ.

ترـكـزـتـ المـعـارـكـ الـبـرـيةـ فـيـ سـهـلـ الغـابـ، وـرـيفـ حـمـةـ عـامـةـ، وـكـذـلـكـ رـيفـ الـلـاذـقـيـ الشـمـالـيـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ المـعرـكـةـ الرـئـيـسـيـةـ قـدـ تـجـهـ إـلـىـ مـكـانـ آـخـرـ. إـنـ الـمـنـاطـقـ الـتـيـ دـارـتـ فـيـهاـ المـعـارـكـ تـمـثـلـ خـاصـرـةـ رـخـوـةـ لـلـسـاحـلـ السـوـرـيـ، حـيـثـ الـبـرـ الـمـتوـسـطـ. وـمـنـ هـنـاـ، بـدـتـ أـهـمـيـتـهاـ بـالـمـعـيـارـيـنـ التـكـيـيـ وـإـسـتـراتـيـجـيـ.

إـنـ إـعـادـةـ تـوزـيعـ القـوـةـ، أوـ إـعـادـةـ اـنـتـشـارـهـاـ، لـمـ يـدـفـعـ حـتـىـ إـلـىـ إـعـادـةـ تـشـكـيلـ مـسـرـحـ الـعـمـلـيـاتـ، (أـوـ إـعـادـةـ رـسـمـ صـورـتـهـ الـعـامـةـ أـوـ الـكـلـيـةـ) عـلـىـ مـسـتـوـيـ الـجـغـافـيـاـ السـوـرـيـةـ، لـكـنـهـ وـضـعـ الـلـبـنـاتـ الـأـوـلـيـةـ لـإـعـادـةـ التـشـكـيلـ هـذـهـ. وـلـعـلـ هـذـاـ هوـ الـمـغـزـيـ فـيـ كـلـ ماـ حدـثـ.

وـبـالـاـنـتـقـالـ إـلـىـ مـبـدـأـ السـيـطـرـةـ الجـوـيـةـ يـُـمـكـنـ الإـشـارـةـ بـدـايـةـ إـلـىـ أـنـاـ بـصـدـدـ مـفـهـومـ حـدـيـثـ نـسـبـيـاـ فـيـ دـرـاسـاتـ الدـفـاعـ، وـهـوـ يـرـتـكـزـ عـلـىـ الـمـقـارـبـةـ الـتـيـ قـدـمـهـاـ جـونـ وـارـدـينـ، فـيـ كـتـابـهـ (The Air Campaign Planning for Combat)، الصـادـرـ عامـ 1988ـ، وـهـوـ كـتـابـ مـرـجـعـيـ بـالـأـهـمـيـةـ.

لـقـدـ قـالـتـ هـذـهـ الـمـقـارـبـةـ باـعـتمـادـ سـلاـحـ الـجـوـ كـأسـاسـ لـضـربـ مـرـكـزـ ثـقـلـ الـعـدـوـ، الـأـمـرـ الـذـيـ يـُـمـكـنـ منـ ضـربـ الـأـهـدـافـ الـأـخـرـىـ بـسـهـوـلـةـ، وـبـذـلـكـ لـاـ تـكـونـ هـنـاكـ حـاجـةـ لـاستـخـدـامـ الـقـوـاتـ الـبـرـيـةـ بـدـايـةـ، وـعـادـةـ مـاـ يـكـونـ اـسـتـخـدـامـهـاـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـاتـ تـالـيـاـ عـلـىـ نـجـاحـ الـعـمـلـيـاتـ الـجـوـيـةـ.

وـقـدـ اـسـتـنـدـتـ الـقـوـاتـ الـأـمـيرـكـيـةـ إـلـىـ هـذـاـ الـمـفـهـومـ فـيـ حـرـوبـهاـ الـخـمـسـ الـأـخـيـرـةـ، فـيـ كـلـ مـنـ الـخـلـيـجـ (حـرـبـ الـخـلـيـجـ الـثـانـيـةـ)ـ وـبـالـبـوـسـنةـ وـكـوـسـوفـوـ وـأـفـغـانـسـتـانـ وـالـعـرـاقـ.

لـقـدـ دـامـتـ الـهـجـمـاتـ الـأـمـيرـكـيـةـ عـلـىـ الـعـرـاقـ خـالـلـ حـرـبـ الـخـلـيـجـ الـثـانـيـةـ 43ـ يـوـمـاـ، تـبـعـتـهاـ أـربـعـةـ أـيـامـ فـقـطـ مـنـ الـعـمـلـيـاتـ الـأـرـضـيـةـ. وـفـيـ الـبـوـسـنةـ شـمـلـ الـقـصـفـ ثـلـاثـمـائـةـ هـدـفـ تـمـتـ إـصـابـتـهـاـ، مـقـابـلـ خـسـارـةـ طـائـرـتـيـنـ، بـعـدـماـ تـكـفـلـ الـحـلـافـاءـ بـالـعـمـلـيـاتـ عـلـىـ الـأـرـضـ. وـفـيـ كـوـسـوفـوـ دـامـتـ الـحـرـبـ 78ـ يـوـمـاـ، وـلـمـ تـعـرـفـ وـزـارـةـ الدـفـاعـ الـأـمـيرـكـيـةـ إـلـاـ بـخـسـارـةـ طـائـرـةـ "إـفـ 117ـ"ـ وـنـحـوـ 15ـ طـائـرـةـ بلاـ طـيـارـ.

ويرتـبـ بمـفـهـومـ السـيـطـرـةـ الجـوـيـةـ اـنـتـراـضـانـ أـسـاسـيـاـنـ:

الـأـوـلـ، ضـعـفـ قـدـرـاتـ السـلاـحـ الـجـوـيـ وـأـنـظـمـةـ الدـفـاعـ الـجـوـيـ لـدـىـ الـقـوـةـ الـمـرـادـ مـهـاجـمـتـهاـ (إـنـ وـجـدـتـ فـيـ الأـصـلـ)، وـذـلـكـ قـيـاسـاـ إـلـىـ حـدـاثـةـ وـتـطـوـرـ الـأـسـلـحـةـ الـمـسـتـخـدـمـةـ فـيـ الـمـهـجـومـ. وـالـثـانـيـ، أـوـ لـنـقـلـ الـمـواـزـيـ، حـصـانـةـ سـاحـةـ الـاـنـطـلـاقـ، وـمـوـاـقـعـ الـقـوـةـ الـمـهـاجـمـةـ، مـنـ ردـ الـفـعـلـ الـاـنـتـقـامـيـ الـجـوـيـ وـالـصـارـوـخـيـ.

الـبـعـدـ الـأـوـلـ لـاـ يـبـدـوـ مـوـضـعـ تـحدـ أوـ اـمـتـحـانـ، بـالـنـسـبـةـ لـلـعـمـلـيـةـ الـرـوـسـيـةـ فـيـ سـوـرـيـاـ، كـونـ الـحـرـبـ لـاـ تـجـرـيـ بـيـنـ دـوـلـتـيـنـ أوـ مـجـمـوعـةـ.

أما بعد الثاني، فقد جرى الاستعداد له بنشر منظومات دفاع جوي روسية، للمديين القريب والمتوسط، نصب في حماة وجبلة، ومناطق أخرى من محافظة اللاذقية، وربما قريباً من الحدود مع تركيا. وهذه المنظومات لم تنصب في إطار التحسب لهجوم جوي من الداخل، بل من الخارج. ويشير هذا الأمر، في جوهره إلى بُعد غير منطوق به في مقاربة التدخل العسكري الروسي في سوريا.

وأيا يكن الأمر، فإن مفهوم السيطرة الجوية يجري تطبيقه الآن في سوريا من قبل ثالثي القوات الروسية (جوا) وال السورية (برا)، وقد أصبحت السيطرة الجوية سمة الحرب الدائرة في الكثير من المناطق السورية، وهذا - على وجه التحديد - هو المتغير الأهم في مسار هذه الحرب.

وإذا كان الروس قد استندوا في حملتهم الجوية إلى أجيال مختلفة من مقاتلات سوخوي (SU)، فإنهم عمدوا - في الوقت ذاته - إلى استخدام كثيف للمروريات الهجومية، وهذا يعني - من المنظور العسكري - أنهم اقتربوا فعلياً ممن ممارسة دور قتالي أرضي، أو لنقل إن حملتهم تسير بتناغم تام مع تحرك أرضي للقوات المعاونة، وهي هنا الجيش السوري، والقوى المؤلفة معه.

كما يعني ذلك أيضاً أن القوتين الروسية وال السورية الرسمية تعاملن (في مناطق معينة) وفق منظومة سيطرة واتصال واحدة، وهذا أمر له مغزاه ومدلوله العسكري والسياسي، وهو يشير - ضمن أمور أخرى - إلى أن العلاقات الروسية السورية قد دخلت طوراً جديداً، أو لنقل منعطفاً تاريخياً في مسارها، وبلغت مدى لم تبلغه في أي وقت من الأوقات.

وإذا كانت النتائج الفعلية للحملة الروسية الواسعة في سوريا يصعب قياسها الآن، بل وحتى حصرها الدقيق، فإن بعض هذه النتائج تجلت في تشتت قوى متمنكة على الأرض في أرياف حماة وحلب واللاذقية.

وفي سياق التطورات المتتسارعة ميدانياً، تفيد المؤشرات بأن الروس ربما استخدموها في حملتهم الجوية قنابل خارقة للتحصينات لتدمير بعض الأنفاق الواقعه في أعماق متقدمة نسبياً من الأرض، كما حدث في سهل الغاب.

وفي الفترة السابقة، كان يجري التعامل مع مثل هذه الأنفاق بتفجيرها من الداخل، أو بإغراقها بالمياه. وهذا أمر لا يتاح إلا بعد تقدم القوات على الأرض. ولذا عمرت بعض الأنفاق، وتحولت إلى ما يشبه المغارات الصغيرة، التي تضم في الغالب غرف القيادة والاتصال.

ولم يلبث المزاج بين البعد البري للحرب الراهنة في سوريا وبعدها الجوي أن عكس نفسه على حساب البعد البحري، وذلك متغير آخر (تابع) من متغيرات هذه الحرب.

وبالطبع، من الصعب في هذا الوقت الخروج بتقييم عسكري متكامل للمسار الجديد للحرب السورية، وسوف يستغرق الأمر أشهراً من الزمن، وأي تقييم يُطرح اليوم هو بالضرورة تقييم لبعض الصورة أو المشهد، ولا يمكن أن يكون غير ذلك.

على الصعيد السياسي، لا يبدو الأمر أقل تشابكاً، من حيث العناصر والمعطيات. إن الحملة الجوية الروسية هي تسبييل أمني لتحالف سياسي، جرى توطينه في إطار ثلاثي سوري روسي إيراني، التحق به العراق، أو أكد التحاقه به مجدداً.

وعلى الرغم من أن هذه الحملة جاءت بطلب رسمي مباشر من الدولة السورية، فإنها عبرت في جوهرها عن تحالف ثلاثي (أو رباعي) قائم، وترجمت مساراً جديداً في مقاربته للأزمة السورية، بدا هجومياً في الغالب، بعد أن كان أقرب إلى الدفاع، أو

وفي ضوء المسار الجديد، بدت سوريا أقرب إلى روسيا وإيران معاً، كما استعادت زخم روابطها مع العراق، بعد جمود مرحلتي أعقاب مغادرة نوري المالكي السلطة في بغداد.

هذا المسار دفع أيضاً باتجاه تعزيز الروابط الروسية الإيرانية، ومنحها بعدها جديداً كانت تبحث عنه. وفي الوقت ذاته، بدأ العراق وقد وجد نفسه في مناخ جديد من التحالفات لم يعهد من قبل.

في هذا المناخ، اقتربت بغداد من موسكو، وأضافت تأطيراً جديداً لتحالفها بطهران، ومدت جناحاً لدمشق يحمل مغزى تاريخياً وبعدها جيوسياسيّاً. وفي غضون ذلك كله، لم يخرج العراقيون عن منطق علاقتهم الإستراتيجية بالولايات المتحدة.

وبالنسبة للروس، إذا قدر للمسار الراهن أن يتقدم خطوة أخرى، ومُدّت العمليات العسكرية الروسية إلى العراق، فسيكون ذلك تحولاً تاريخياً في البيئة الجيوسياسية للشرق الأوسط، كما سيعيد هذا التطور تعريف البيئة الأمنية للخليج العربي، ويقدم قراءة جديدة لخيارات العراق الخارجية.

في هذه الأثناء، بدت الولايات المتحدة شديدة الاهتمام بالتطورات الجارية، إلا أن خياراتها ظلت مقيدة؛ فهي لا تستطيع – وفقاً لمنطق الأشياء – أن ترفض كلّاً الحملة الجوية الروسية في سوريا (أو العراق)، لكنّها تستند – ولو نظرياً – إلى المبررات ذاتها التي انطلقت بموجبها الحملة الأميركيّة في الأجواء السورية والعراقيّة.

في المقابل، يدرك الأميركيّون مدى التباينات القائمة مع الروس على مستوى المقاربة الكلية للأزمة السوريّة، ويدركون جيداً – في الوقت ذاته – ماهية المغزى السياسي الذي يُمثله تدخل روسيا محتملاً في العراق.

وعليه، نأت الولايات المتحدة بنفسها عن التعاون مع روسيا في حملتها الجوية في سوريا، واكتفت بالحديث عن ضرورة التنسيق بين القادة العسكريين لمنع أي احتكاك بين الطيران الأميركي ونظيره الروسي في الأجواء السوريّة.

وبالنسبة للاحتمالات الخاصة بالعراق، بدا التحفظ الأميركي هو الأصل، لكنه ظلّ دبلوماسياً.

وبين الحملة الروسيّة في سوريا، واحتمالات مدها نحو سماء العراق، ثمة انفتاح أميريكي جديد، أو لنقل هناك مستوى جديد من هذا الانفتاح، على صعيد المقاربات السياسيّة الخاصة بالأزمة السوريّة. وهذا متغير آخر في البيئة الدوليّة لهذه الأزمة، ومتغير أولي ذو صلة بفضاء السياسة الخارجية الأميركيّة ذاتها.

وما يمكن قوله خلاصة – في سياق هذا الإيجاز – هو أننا اليوم بصدّ معادلة إقليمية أعيد تعريفها، بدت فيها الكثير من قضايا المنطقة متوقفة كثيراً على مستقبل الحدث السوري واتجاهاته، وبدت مقاربات التسوية السياسيّة في هذه اللحظة المصيرية وقد استعادت زخمها، ولعل فرص النجاح متاحة اليوم أكثر من أي وقت مضى. وهذه خلاصة تاريخية.